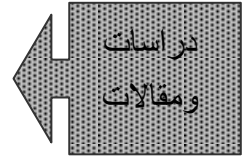


أحمد السيوفي
كاتب مصري

الوحدة الإسلامية ضرورة حتمية وواجب شرعي



الوحدة الإسلامية برغم انها فريضة شرعية
بنصوص الكتاب والسنة فان ظروف العصر
ومقتضيات المصلحة تجعل الوحدة ايضا ضرورة
سياسية وحتمية واقعية، وللدخول في
التفاصيل بشكل أدق فإنه يتعين تحرير
المصطلح من حيث البناء اللغوي ومن حيث
طبيعة المصطلح الشرعي، ثم ندلف الى المعنى
السياسي انطلاقا من القاعدة الاصولية التي
تقول ما لم يتم الواجب إلا به فهو الواجب،
اذن فالوحدة من المنظور الشرعي أسس لها
النص القرآني كما أسس لها الواقع النبوي،
فالقرآن حدد ملامح الوحدة بوضوح لا يقبل أي

شك، ففي قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أما السنة النبوية فقد حثت على الوحدة بقوله (ص): «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا» وقوله (ص): «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» أي البعيدة المفارقة للامة الموحدة، وهذه الوحدة تتأسس على سنن الله في الكون التي تقضي بضرورة الاختلاف والتنوع في اللون والجنس والعقيدة والتفكير والمذهب، حيث خلق الله سبحانه وتعالى الناس مختلفين في الجنس واللون واللغة والثقافة والعادات والتقاليد ﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم﴾⁽¹⁾. وهو اختلاف سيبقى كما جاء في القرآن الكريم الى يوم الدين ولو شاء الله لجعل الناس كلهم امة واحدة وهو الذي خلقهم من نفس واحدة ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾⁽²⁾. ان الحكمة الالهية من هذا التنوع تتمثل في دعوة الناس الى التعارف ولا يكون التعارف، الا بالتواصل، التواصل المعرفي في الدرجة الاولى؛ ذلك انه بغياب

التواصل تزداد اللامعرفة مساحة، وتزداد هوة سوء المعرفة عمقا، وبالتالي تتحول العلاقات بين الناس كما نشهد في الكثير من الحالات الى اضطرابات وصدامات ناشئة عن أساس وفي الدرجة الاولى عن اللاتعارف وعن اللاتواصل، ومن هنا فان التواصل المعرفي هو الذي يحول دون الاستدراج الى أو الوقوع في مهب الصراع الديني أو الحضاري، وهو الذي يؤسس لقيام تواصل حضاري تدافعي ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾⁽³⁾. يصب في النهاية في مصلحة الانسانية والخير العام، على ان الحاجة الى التواصل ليست مقتصرة على المسلمين بل ايضا مع غير المسلمين ، وان كانت الحاجة هنا اساسية وملحة، ولكن العلاقات الاسلامية تحتاج الى ثقافة التواصل ايضا، فمع غير المسلمين من المفيد جدا ان يقوم التواصل معهم بلغتهم، و كذلك بالاسلوب وبالمنهج اللذين تقوم عليها ثقافتهم العامة، ولذلك سيكون مفيدا ان نرى التواصل باللغة الانجليزية على الاقل، وهذا التحدي الاول ﴿لكل امة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الامر وادع الى ربك انك لعلي هدى مستقيم﴾⁽⁴⁾. ومع المسلمين غير العرب

من المفيد جدا كذلك ان يقوم التواصل باللغات المحلية الاساسية مع مراعاة الخصوصيات المجتمعية و الاولويات الفكرية، وهنا ايضا سيكون مفيدا ان نرى التواصل باللغة الفارسية بين العرب والدول الناطقة بالفارسية مثل ايران و افغانستان و تركمانستان و آذربيدجان وغيرها كالاوردية (الهند \ باكستان) أو المالوية (اندونيسيا \ ماليزيا) وفي الاساس تعاني مجتمعاتنا من ثنائية تناقضية : ثنائية الروحي والمادي، التقليدي والعصري، الانغلاق والاعتراب، الرفض والقبول، هذه الثنائية فتحت ثغرات ضعف في عقل الامة مكن لعملية الاختراق من ان تحقق، ولو بعض اهدافها في تدجين العقول و اعادة قولبتها ثقافيا و من ثم فرض قيم و عقائد تكون مرتكزات ثابتة لمواصلة عملية الاستتباع تمهيدا لعملية الادمج.

ان افتقار العالم الاسلامي الى مشروع نهضوى - اسلامي متكامل، وقصور الاعلام الاسلامي عن ان يكون سداً في وجه عملية الاختراق المتواصل من الخارج تجعل ذراع الاختراق قادرة على ان تطال بالطعن والتجريح البنى الفكرية والعقائدية لمجتمعاتنا، وان توجه ضربات موجعة الى موروثنا الثقافي والسلوكي

والقيدمي والاساءة التي تعرض لها نبينا الكريم محمد (ص) في الاعلام الدنماركي والاعلام الغربي الذي تزامن معه دليل على ذلك، ثم ان ردود الفعل المتباينة في الاعلام الاسلامي على تلك الاساءة دليل آخر على ان غياب المنهجية في الاعلام ضعفت وأضاعت الموقف الاسلامي العام من القضايا الاسلامية، حتى تلك التي تتعلق بالعقيدة والاختلاف بين افراد البشر اراده الله سبحانه وتعالى لحكمة إلهية، وهي الاختبار والابتلاء فيما انعم الله به عليهم من نعم وفيما رزقهم به من فضله وفيما كرمهم به على سائر مخلوقاته من عقل وفكر وفيما أمرهم به من ايمان بعقائد وشرائع أوحى بها الى رسله وانبيائه ﴿ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن لیبلوکم فی ما آتاکم فاستبقوا الخیرات الى الله مرجعکم جميعا فينبئکم بما كنتم فيه تختلفون﴾ ولايزال الناس ما بقيت الدنيا والى ان تقوم الساعة مختلفين في مذهبهم حياتهم وفي اسلوب معيشتهم وفي افكارهم وفي اتجاهااتهم وفي مقاصدهم وفي آمالهم وفي اخلاقهم وفي سلوكهم وفي لغاتهم وفي عقائدهم الدينية والمذهبية... الخ فالدين الاسلامي لم يأت ليمحو الرسائل السماوية السابقة بل

اتى مصدقا ومتمما لها يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير﴾ ويقول الرسول (ص) : «مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثلي رجل بنى بناينا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زوايا فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) فصریح الاية القرآنية السابقة وصریح حديث الرسول عليه الصلاة والسلام السابق يدلان على ان الاسلام يحترم جميع الاديان السماوية الاخرى و يأمر المسلمين بالايمان بها و باحترام الشعائر الدينية لاتباعها، وعدم التعرض لهم بسوء، والعيش معهم في سلام وحب و تعاون واخاء ما داموا لم يعتدوا على المسلمين أو يسلبوا أرضهم أو يقاتلوهم، قال تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن

يتولهم فأولئك هم الظالمون) وقد منع النبي محمد (ص) ان يظلم انسان بسبب لونه أو جنسه أو دينه، واكد على ان الناس جميعا متساوون في الحقوق والواجبات، وان التفاضل بينهم في تقوى الله وطاعته فقط. فعن جابر بن عبد الله (رض) قال خطبنا رسول الله (ص) في اوسط ايام التشريق خطبة الوداع فقال: (يا ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان اكرمكم عند الله اتقاكم الا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا اسود على احمر ولا احمر على اسود الا بالتقوى ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: فليبلغ الشاهد الغائب). ونادى الاسلام باحترام كل اديان السماء وامر اتباعها ألا ينحرفوا عن أصولها، لقد احترم الاسلام النفس البشرية وجعلها موضع اجلال وتقديس واعتبرها هي الحياة ونظر إليها نظرة عامة شاملة وحرم الاعتداء عليها إلا بحق، واعتبر ان من قتلها فكأنما قتل الناس جميعا، قال تعالى: ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض فكانما قتل الناس جميعا ومن احيها فكانما احيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيرًا منهم بعد ذلك في الارض لمسرفون﴾ وتنكير كلمة النفس في الآية

الكريمة تفيد العموم أي : أي نفس لافرق بين جنس و جنس ولا بين لون و لون ولا بين رجل وامرأة ، ونهى الاسلام عن الاعتداء على النفس قال تعالى: (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الابالحق ذلكم و صاكم به لعدكم تعقلون) ، وشدد العقوبة على من يرتكب هذه الجريمة فقال تعالى : ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما﴾، ثم صان الاسلام المال الخاص بالفرد وعرضه ونهى عن الاعتداء عليهما : يقول رسول الله (ص) : (المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله) ويقول عليه الصلاة والسلام (من آذى ذميا فانا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة) ، وبذلك يضمن الاسلام للفرد في المجتمع السلام والاطمئنان في حياته حتى يتفرغ للعمل والانتاج وعمارة الكون في دنياه وقال تعالى: ﴿يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) ويكون هذا الاتصال والتعارف والتعاون في نطاق الاحترام المتبادل والوفاء بالعهود والمواثيق والمعاهدات وعدم الاعتداء وتبادل المنافع والخبرات بما يخدم الانسانية ويعم

الخير على البشر جميعاً.. في هذا المجتمع الدولي الذي يسوده الاختلاف بين البشر في مجالات الحياة المتعددة : سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وثقافية وحضارية.... الخ لا سيما الاختلافات العرقية والاختلافات الدينية يطرح سؤال يفرض نفسه : هل يمكن ان يتم التعايش السلمي والايجابي البنّاء في مجتمع متعدد؟؟ ويقول سبحانه : ﴿ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾، والغاية من نزولها ايضاً نشر الحب والرحمة بين بني الانسان ويصف الله هذه الغاية مخاطباً النبي محمد (ص) في القرآن الكريم بقوله: ﴿وما ارسلناك الا رحمة للعالمين﴾ أي وما ارسلناك ايها الرسول الكريم بهذا الدين الحنيف وهو دين الاسلام إلا من أجل ان تكون رحمة للعالمين من الانس والجن، لأننا قد ارسلناك بما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم متى اتبعوك واستجابوا لما جئتهم به و اطاعوك فيما تأمرهم به أو تنهاهم عنه وفي الحديث الشريف يقول عليه الصلاة والسلام: (إنما انا رحمة مهداة) ولكن كيف يتم تحقيق هذا التعايش السلمي الايجابي البنّاء في مجتمع متعدد؟ ان تحقيق ذلك يتوقف على تبني عدة عوامل ووسائل اذا تكاتفنا

وتعاوننا جميعاً على تطبيقها وتنفيذها تحقق هذا التعايش لاحتظ اننا مازلنا نتحدث عن التعايش بين المسلم وغير المسلم فما بالك بالمسلم مع المسلم ولنضع معا اسس التعايش أهمها:

اولاً : الامر يحتاج أولاً الى صدق النية لدى الجميع في السعي الى تحقيق هذا الامل ولا سيما لدى المؤسسات التي تتبنى الدعوة الى هذا التعايش بأن تكون عندها الرغبة الجادة في تحقيق هذا التعايش و ان تستعمل العقل الفطري الذي خلقه الله فينا مجرداً عن الهوى والميل، وان تستخدم المنطق السليم في اقناع الآخرين بضرورة وحتمية تحقيق هذا التعايش لما فيه من الخير الذي يعم الجميع، وأن تتبنى العوامل والوسائل التي تعمل على تحقيق هذا التعايش وتسعى بجدية الى تنفيذها، وان تكون قدوة حسنة في تطبيق التعايش السلمي عملياً مع الآخرين .

ثانياً : تفعيل الدور الايجابي للحوار مع أتباع سائر الأديان على وجه عام في جميع مجالات الحياة الاخرى ما داموا لا يتعرضون للدين الاسلامي ولا للمسلمين بسوء يقول القرآن الكريم: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب

المقسطين، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون»، والدين الاسلامي لا يكره أحداً على الدخول فيه، هذا بالطبع لغير المسلم أليس من الاولى ان يبدأ الانسان تعايشه وحواره مع المسلم الذي يختلف معه في أي شأن .

ثالثاً : واذا كان الحوار الديني والحوار الاجتماعي لهما الصدارة في العوامل التي تساعد على تحقيق هذا التعايش إضافة الى الحوار الاقتصادي والحوار السياسي فإن هناك عوامل اخرى كثيرة يجب ان تؤدي دورها في تحقيق هذا التعايش لما لها تأثير فعال في توجيه الفكر وتوجيه السلوك وتربية القيم وتحديد أسلوب التعامل في العلاقات مع الآخرين، من هذه العوامل دور التعليم التي تشكل عقلية الجيل منذ التحاقه بها صغيرا الى ان يتخرج منها كبيرا، فهي تربي فيه النوازع التي تحددها له في المناهج الدراسية فاذا غرس في تربية النشء منذ صغره فكر تقبل الآخرين وحبهم و التعاون والتعايش معهم والعمل سويا على تقدم المجتمعات ورفع شأنها واعتناق مبدأ نجمع فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه، فكل واحد يعبد الله على حسب عقيدته (لا اكراه في الدين)، مع التأكيد

على احترام مشاعر الآخرين و عدم إيذائهم ، واحترام اماكن عبادتهم وترسيخ حقيقة الاخوة التي تجمعهم في أصل النسب البشري، كان ذلك بلاشك من العوامل الايجابية في تحقيق هذا التعايش ولأهمية دور المؤسسات التعليمية في تشكيل العقليّة والفكر والتوجيه، اطالب بتدريس مادة الحوار وادخاله في المناهج الدراسية و مبادئه ومناهجه من النصوص المقدسة في آيات القرآن الكريم، التي نزل بها الروح الأمين من عند الله على الرسول الصادق الامين محمد بن عبدالله و من السنة النبوية الشريفة، التي نطق بها أو عمل بها أو أقرها رسول الله (ص) المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى، واتضح مما سبق عرضه واستبان حكمه ان الاسلام دين يدعو الى التعارف والتآلف والتعاون والتعايش بين ابناء البشر جميعا بلا تفرقة بين جنس أو لون أو عقيدة، وان المنهج الاسلامي هو صاحب القانون الأوحد الذي جاهر في اعظم ايام ازدهاره بأن الناس سواسية كأ سنان المشط، وانه لافضل لعربي على أعجمي إلا بتقوى الله، وان كل الناس لآدم و آدم من تراب، وأن الاسلام دين لايعرف الفروق الجنسية بين الناس، وانه دين يقر لغير المسلمين بالحقوق والواجبات التي للمسلمين ما داموا يعيشون في كنفه بالمودة

والحسنى، من غير اعتداء ولاتحالف مع أعداء المسلمين.

ان من اعظم مبادئ الاسلام التي نادى بها وطبقها عمليا مبدأ المساواة بين الناس جميعا في الحقوق والواجبات، وانه دين يرفض بل يذكر أن يخلع شعب على جنسه من عوامل التعالى والتفوق وطهارة السلالة ونقاء المعدن مالا يمكن ان يخلص لسواه من الاجناس.

لقد جاء الاسلام ليصحح تصنيف شعوب العالم الذي صنعه الحضارات القديمة قبل حضارة الاسلام، فقسمت الشعوب بل الشعب الواحد الى سادة وعبيد والى نبلاء وخدم والى مستأنسين ووحوش لقد ازدهرت الثقافة الاغريقية إزدهاراً صار حديث الاجيال المتغنية بفدسفتهم وآدابهم؛ حتى عُزي إليها فضل النهضة العلمية الاوروبية، ولكن اصحاب هذا الارتقاء الفكري قد نظروا الى أنفسهم بقداسة وتعظيم فأعلنوا ان ماعداهم من الشعوب بربري متوحش، وجاء افلاطون ليقسم الناس في جمهوريته الى طبقات من السادة والعبيد فيختص بالسيادة والحكم اناسا وبالخدمة والإستعباد آخرين، ثم تابعه ارسطو في كتابه السياسة فأعلن في قسوة أن للإغريقي على المتوحش حق الإمرة وان العبيد اذا عوملوا بالرفق صاروا سفلة وقحاء، وان الآسيويين يطبقون استبداد الحاكم وجبروته،

اما الاغريقيون فأحرار أباة، وان شعوب الارض الباردة اكثر ذكاء واكثر شجاعة من غيرهم، وان اليونانيين أفضل الناس على الاطلاق، وقد اشتهر كتاب ارسطو في السياسة وتناقل اكثر العلماء اراءه كحق صريح لايقبل التأويل، ثم دار الزمان فتألفت السيطرة الرومانية وخبأ مشعل الإغريق الى أمدماء فأخذ الرومانيون يدعون ان كل من لاينتمي الى الامبراطورية بربري متوحش، وأنهم وحدهم أصحاب السمو والارتقاء وان جيرانهم الأذنين من الجرمان والصقلب أجناس منحطة متقهقرة، وقد نسي الاغريق والرومان معا ان الحضارة الاولى في طريق الانسانية كانت شرقية لا غربية، وان مبادئ الفلسفة تمت على ضفاف النيل، وان الحروف الأبجدية لديهم مستوردة من لبنان وسوريا ايام الفينيقيين، ولكن الحق شيء والخطرسة الكاذبة شيء آخر عند أولئك وهؤلاء، فلما أشرق نور الاسلام كان مبدؤه الانساني الأوحد هو المساواة بين بني البشر، لقد جهر الرسول الاعظم بتقرير حق المساواة بين بني البشر في حجة الوداع حين قال في خطبته الرائعة: ﴿يا ايها الناس ان ربكم واحد و اباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا أسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله (ص). و كان تطبيق

الخلفاء الراشدين والائمة عليهم السلام لهذا المبدأ المثالي في عصر القوة الباهرة عجا من العجب؛ فقد تداعت الدولة وترنحت امبراطوريتا الروم والفرس بقوة الاسلام، ووقف الخلفاء الراشدون في أوج عظمتهم وباهر قوتهم ليطبقوا المساواة مهتدين بكتاب الله ومتبعين نهج رسولهم الكريم كما فعل هذا الائمة (ع)، ومن هنا فإن ادعاءات الغرب بالحرية والمساواة وحقوق الانسان ماهي إلا ادعاءات زائفة لأنها قائمة على التفرقة العنصرية. لقد نادى الثورة الفرنسية بمبادئ الحرية والمساواة والاخاء لتظل حجرا محجورا على الاوروبيين دون الشرقيين، فالحرية للغرب وحده، اما دول الشرق فلها الاستعباد والذل و الاحتلال، لقد اعترف المنصفون من المستشرقين بعظمة الاسلام، وانه دين يقر ويطبق المساواة بين بني البشر يقول المستشرق الانجليزي الكبير مستر جب في كتابه (حيثما يكون الاسلام): (ولكن الاسلام ما زال في قدرته ان يقدم للانسانية خدمة سامية جليلة فليس هناك اية هيئة سواه يمكن ان تنجح نجاحا باهرا في تأليف الاجناس المتنافرة في جهة واحدة أساسها المساواة فالجامعة الاسلامية العظمى في افريقية و الهند و اندونيسيا، بل تلك الجامعة الصغيرة في الصين وتلك الجامعة

الضئيلة في اليابان لتبين كلها ان الاسلام ما زالت له القدرة التي تسيطر كدية على امثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات، فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بد من الالتجاء الى الاسلام لحسم النزاع)؛ ان الاسلام وحده هو الذي يستطيع ان يحقق التعايش السلمي الايجابي البناء على المستوى العالمي، مازلنا نتحدث عن التعايش مع الاديان الاخرى، ومازلنا نصر ان التعايش والتعاون والتوادد مع المسلمين اوجب وانفع، الاتحاد الاوروبي نموذج لوحة المصالح أردت هنا ان اطرح نموذج الاتحاد الاوروبي كيف التقت ارادة الاوروبيين على الوحدة برغم الاختلاف اللغوي في أوروبا اكثر من 15 لغة، وبرغم الاختلاف المذهبي هناك الكاثوليك والبروتستانت والارثوذكس، وغير ذلك، وبرغم الاختلاف الثقافي وبرغم الحروب التاريخية بينهم في الحربين العالميتين الاولى والثانية قتل فيها اكثر من 60 مليون أوروبي بسبب الحروب والتناحر بينهم، وبرغم كل هذا وجد الاوروبيون ما يجمعهم وما يوحدهم، ولهذا سنطرح جانبا من التاريخ الاوروبي، وكيف تمت الوحدة الاوروبية حتى تتكشف المفارقة لأمتنا الاسلامية التي لديها الكثير والكثير جدا

مما يوحدنا فتبحث عما يفرقها ولندخل في الموضوع:

1- ترجع الجذور التاريخية والثقافية في أوروبا الى عام 2000 قبل الميلاد تقريبا وتعود سلاسل ثقافتها الى مناحي الحياة اليونانية والرومانية المتعددة بأساطيرها وأديانها، ويمكن الوقوع على سماتها حتى القرن الخامس الميلادي في الثقافتين المذكورتين واللتين اصطلح على وصفها بثقافة الانتيك، بعدها بدأت عصور الهجرات والترحال ليتسلم مقاليد الامور في الجزء الغربي من القارة القبائل الجرمانية وتتسلم القبائل البيزنطية مقاليد الشرق الاوروبي وبيداء تكوين الامارات الفرنسية (الامبراطورية الفرنسية بعد ذلك) انتقلت الأهمية نسبياً من منطقة البحر المتوسط باتجاه الشمال لتذوب بعدها بقايا ثقافة الانتيك (اليونانية والرومية) وتتداخل مع الثقافة الجرمانية والمسيحية الشرقية كما عرفها اهل روما وبيزنطة، وقد أدى ذلك الى توازن من نوع ما داخل الامبراطورية الفرنسية بين تيارين سياسيين احدهما يغلب عليه الطابع الجرمانى والآخر يغلب عليه الطابع الرومانى ويعتبر المؤرخون ان هذين التيارين السياسيين هما الركيزة الاولى لكل التغييرات السياسية اللاحقة في اوروبا لكن

الوحدة الثقافية الاوروبية بشكلها المتأخر لم تتبلور إلا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر اثناء وربما بفعل الفتوحات والحروب التركية العثمانية، فقد وحدث المقاومة الاوروبية الموسومة بالصبغة الدينية المسيحية سكان تلك المناطق والمقاطعات والدول تحت راية واحدة انضمت تحت لوائها المقاطعات الفرنسية والرومية والجرمانية، وحتى القيدصرية الروسية تحت حكم بطرس الكبير وبهذه الأحداث أصبحت المناطق المختلفة جزءا واحدا من النظام والحركة الاوروبيتين.

2- لكن جذور القوميات الحالية في منطقة وسط اوروبا تعود حسب الاكتشافات الاخيرة الى العصر الجليدي القديم أي ما بين اعوام 800 و400 قبل الميلاد حيث عاش في المنطقة المحصورة في جغرافية المانيا والنمسا شعب يرجع عرقه الى الهنود الجرمان، وقد عرف ذلك الشعب بالآليريين الذين مارسوا التجارة وخاصة تجارة الملح والبرونز وانشأوا حضارة عرفت باسم حضارة مدينة الهال (هال شتات)، ثم جاء الكلتيون الذين انشأوا مدنا وامارات منظمة وعرفوا بالتنظيم الاداري والسياسي و مارسوا تجارة الحديد الى جانب الملح و البرونز ذلك الحديد المشهور بالحديد النوري حتى الان، والذي استخرجه

من منطقة ارتيسبرج النمساوية حالياً ضمن ولاية شتايرمارك، وقد عرف الملوك والامراء وقتها باسم الملوك والامراء النوريين، وعاشوا على الاراضي الممتدة من جنوب المانيا حتى النمسا الحالية في الاعوام التي سبقت ميلاد السيد المسيح (ع)، بعدها ضمت المقاطعات ريتا ونرويكوم وبانونيا الى الامبراطورية الرومانية، هذا جزء مما شكل اوروبا قديما، ثم لنتقل الى العصر الحديث، وأول محاولات انشاء اوروبا الموحدة والتي بدأت في عصر نابليون .

3- بعد الانتصار على نابليون في حروب التحرير تعاضم الأمل باتجاه انشاء الدولة الاوروبية الموحدة، وقد وضع مؤتمر فيينا في عامي 1814-1815 مقترح النظام الاوروبي الجديد، ولم تكن مسودة ذلك المشروع سيئة بأي حال من الاحوال، وانعشت آمال الشعوب الاوروبية من جديد في قيام دولة قومية حرة موحدة، لكن هذا لم يتحقق، وبدلاً منه فقد حل محل الرايخ القديم اتحاد الماني نتيجة اندماج محدود لدول بقيت في حقيقة الأمر تتمتع باستقلالها الكامل، ولم يجمع بينها سوى هيئة واحدة هي البرلمان الاتحادي (البوندستاج) في فرانكفورت لكن حتى تلك الهيئة لم تكن برلمانا بالمعنى المتعارف عليه في الوقت الحاضر حيث لم تكن سوى

برلمان للمدعوئين، وليس برلمانا منتخبا بشكل ديمقراطي من الشعب، ولهذا فقد كانت تلك الهيئة مقيدة الى حد بعيد، ولم تكن قادرة على اتخاذ القرارات الحاسمة والمصيرية سوى باتفاق القوتين العظمتين بروسيا والنمسا، بل اصبحت المهمة الرئيسية لتلك الهيئة بمرور الوقت هي قمع اية اتجاهات تنادي بالديمقراطية الحقيقية أو الوحدة الحقيقية، كما أخضعت الصحافة والنشر لرقابة كاملة وصارمة واصبحت الجامعات ومؤسسات الفكر القليلة القائمة موضوعة تحت المراقبة وحرمان النشاط السياسي على وجه العموم، وساد منطق الحكم المطلق المعروف من قبل الى حد بعيد.

4- الحرب العالمية الاولى والثانية: أدى اغتيال ولي العهد النمساوي في الثامن والعشرين من يونيو 1914 حسب السبب الرسمي الى اندلاع الحرب العالمية الاولى التي استمرت حتى 1918 (وقد انسحبت روسيا منها في اعقاب الثورة البلشفية عام 1917) لكن المؤرخين مازالوا حتى كتابة هذه الاسطر مختلفين فيما بينهم وسيظلون حول الاسباب الحقيقية لاندلاع تلك الحرب وكذلك المسؤولين عنها وحيث لم يكن من مصلحة أي من الاطراف الكبرى في اوروبا في ذلك الوقت على الأقل الاشتراك في حرب تعوق عمليات التنمية

المركزة التي تتم على اراضيها، كذلك فلم تكن التغييرات الدائمة في خريطة التحالفات بفعل الحركة المستمرة في عمليّة الالتقاء على المصالح المشتركة في اوروبا والعالم.

5- في سياق النتائج التي خرجت بها اوروبا من الحرب العالمية الاولى والازمة الاقتصادية العالمية وكذلك التطلعات التي افضت اليها المتغيرات في موسكو و برلين والتقارب غير المعلن بين هتلر وستالين حول ما يستدعي التنسيق بغية خلق ترتيبات جديدة تراعي المصالح الروسية والالمانية بقدر ما تعكس قوة الدولتين، وفي اطار إ عادة تقسيم اوروبا والهيمنة عليها، وباتفاق مشترك بين هتلر و ستالين تحركت القوات الالمانية في مارس 1939 باتجاه تشيكوسلوفاكيا، وفيما اغضت الحكومات الانجليزية والفرنسية واعينها عما يجري ايقن هتلر ان الفرصة ربما تكون مواتية للاستيلاء على بولندا، وعليه تحركت القوات الالمانية في الاول من سبتمبر 1939 باتجاه بولندا مما ادى الى اشتعال الحرب العالمية الثانية، التي استمرت خمس سنوات ونصفا، دمرت فيها اوروبا واودت بحياة خمسة وخمسين مليوناً من البشر بعد بولندا استولت الجيوش الالمانية على الدنمارك و النرويج وهولندا و بلجيكا ولوكسمبورج وفرنسا،

يوغوسلافيا واليونان، بل وتقدمت الى داخل الاتحاد السوفيتي وحتى حدود موسكو فيما وصلت الى شمال افريقيا وحتى الحدود الغربية لمصر بما يعني تهديد قناة السويس كأهم ممر مائي للعالم أجمع آنذاك، فيما حكمت تلك الدول كلها بما يتوافق ومصالح الجيش الالمانى وخطوط تموينه وامداده، وأثناء ذلك استمر ما اصطلح على تسميته بالحل النهائي للمسألة اليهودية؛ وهي القضية الوحيدة التي اتفق عليها كل الغرماء و المتحاربين، وبدأت جموع النازحين ومن كل الاتجاهات تصل الى فلسطين لتشكل بدورها عصابات لتهجير وترويع الفلسطينيين ودفعهم لمغادرة اراضيهم واحتلالها، فيما سعت القوات البريطانية وبكل الطرق لدعم تواجد تلك العصابات وتسليحها تنفيذاً للجزء الخاص بها في حل تلك القضية، وفي الأول من يناير 1973 انضمت بريطانيا وايرلندا والدنمارك الى عضوية الجماعة الاوروبية التي استطاعت ان تحصل في العام 1974 على مقعد عضو مراقب في الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك، وفي العام 1978 اجتمع ممثلو الجماعة الاوروبية في كوبنهاجن ليقرروا البدء بالترتيب لإجراء اول انتخابات مباشرة للبرلمان الاوروبي في العام 1979، وفي 13 مارس 1979 اعلن رسمياً

عن النظام الاوروبي النقدي الموحد، وتعيين اليورو كوحدة نقدية للجماعة يحاسب على اساسها سعر الصرف وفي الاول من يناير 1981، انضمت اليونان الى المجموعة الاوروبية، وبعد ذلك بسنتين 1983 وقع رؤساء الوزارات مجتمعين على اول وثيقة باسم الاتحاد الاوروبي في شتوتجارت بالمانيا وفي يونيو 1985 اقترح القومسيون المنبثق عن رؤساء الوزارات في دول الجماعة الاوروبية الكتاب الابيض كجدول زمني لفتح التجارة والاسواق بين الدول الاعضاء ذلك حتى نهاية 1992، وفي نهاية نفس العام 1985 قررت الجماعة الاوروبية بالأغلبية المطلقة اقرار التغييرات الحاصلة مجملها في الاتفاق الرومي الاول الموقع عام 1957، وبدخول عام 1986 انضمت البرتغال واسبانيا الى الجماعة الاوروبية واعلن في العام نفسه عن الميثاق الموحد الجديد للجماعة، ووقع عليه كل الاعضاء وفي الاول من يوليو 1987 وبمناسبة الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على الاجتماع الاول للجماعة اصدرت بلجيكا اول عملة معدنية معترف بها كوسيلة للدفع ECU .

6- وفي اجتماع 26\27 يونيو 1989 اعلنت الجماعة الاوروبية عزمها على اعتماد الخطوة الثانية باتجاه الوحدة النقدية والاقتصادية كذلك فقد اعتمد مشروع ديلورس (نسبة الى

رئيس القومسيون الاوروبي المكلف باعداد التقرير النهائي عن الوحدة النقدية والاقتصادية) كمقترح أساسي ينفذ على ثلاث مراحل، وفي الاجتماع الثاني 8\9 ديسمبر من نفس العام اعلن رؤساء الوزارات مجتمعين قرارهم بالدعوة لمؤتمرين متعاقبين يكون الهدف من انعقادهما تهيئة الشروط اللازمة لتحقيق الوحدة السياسية والاقتصادية، وبحث توحيد العملة حتى نهاية 1990، وفي 27\28 اكتوبر 1990 اختتم الاجتماع التمهيدي في روما لبحث الوحدة السياسية وفي التاسع والعاشر من العام نفسه اعلن المجتمعون في هولندا القرار الخاص بالوحدة النقدية والسياسية والاقتصادية، وذلك بحلول العام 1999، وفي السابع من فبراير 1992 وقع وزراء الخارجية والمالية لاثنتي عشرة دولة اوروبية ميثاق ماستريخت الخاص بدولة الاتحاد الاوروبي، وقد اصبحت التجارة بالكامل حرة منذ بداية 1993 استنادا على ذلك الميثاق دون اية حدود جمركية بين اعضاء الدولة الناشئة، مع ما يعينه ذلك من حرية الحركة للبضائع والاشخاص والخدمات ورأس المال، وفي الثاني من اغسطس اتفق الجميع على تثبيت اسعار عملاتهم في التجارة بينهم (- + 15%) وبحلول اول نوفمبر اصبح العقد ملزما لاعضائه المنضوين تحت راية

الاتحاد الاوروبي، وفي بداية 1994 بدأت المرحلة الثانية للوحدة النقدية والاقتصادية بتأسيس معهد ومركز العملة الاوروبية في فرانكفورت بالمانيا، وفي بداية 1995 انضمت السويد والنمسا وفنلندا الى الاتحاد الاوروبي ليصبح عدد اعضائه خمس عشرة دولة، وبنهاية العام نفسه قرر رؤساء اللوزارات في تلك الدول بالاتفاق تسمية العملة الأوروبية الموحدة اليورو وتم وضع البرنامج الزمني والاجرائي لاصدار تلك العملة وفي التاسع والعشرين من مارس 1996 بدأ مؤتمر للحكومات الاعضاء في دولة الاتحاد الاوروبي أعماله للتجاوز في التنفيذ العملي للوحدة السياسية، وتوحيد المواقف تماما، خاصة في مجالات السياسة الخارجية والامن القومي والقضاء والسياسة الداخلية وفي ديسمبر من العام نفسه تم الاتفاق في DUBLIN على تثبيت سعر الصرف والفائدة على القروض للدول الاعضاء.

وفي 17\6\1997 وقع الجميع على اتفاق الوحدة السياسية في امستردام بهولندا بصيغته النهائية لتأمين معدلات الزيادة في الناتج القومي للدول الاعضاء، وكذلك لمعدلات الصرف الجديدة، وقد اتفق الجميع على شكل وقيمة العملات المعدنية للعملة الاوروبية والاستعداد النهائي لاصدارها، كذلك فقد تم

الاتفاق على تجميد النظر في طلبات العضوية المقدمة من تركيا وقبرص ومالطا لأسباب داخلية بتلك الدول، كما أرجأوا النظر في الطلبات المقدمة من المجر وبولندا ورومانيا وبلغاريا وسلوفاكيا والتشيك وليتوانيا وسلوفانيا الى مرحلة أخرى، وقد تم التوقيع على الاتفاق النهائي الواجب توافرها في الدول التي ستكون منذ البداية مشاركة في اصدار اليورو واستخدامه في المعاملات التجارية على المستوى الدولي .

7- وبتخاذ هذا القرار تكون العجلة قد دارت باتجاه التوحيد النقدي حيث لا عودة بعدها، كما تم الاتفاق على انه بحلول يناير 1999 تكون الاجراءات العملية والادارية قد تم الانتهاء منها، وذلك ليتسنى للدولة تأسيس بنكها المركزي وتعيين رئيسه ونائبه ومجلس ادارته وحيث سيكون من سلطته بالاستناد على تقارير معهد العملة الاوروبية تحديد السياسات المالية القادمة، وكذلك شكل وقيم العملات المصدرة وفئاتها، وتبدأ المرحلة الثانية في 1999 ايضا وهي مرحلة التعامل بين الاعضاء الذين انطبقت عليهم شروط المشاركة (بعض الدول لم تحقق حتى الان تلك الشروط كاليونان و البرتغال والبعض طلب الايكون من البداية مشاركا كالسويد) في الوحدة النقدية واصدار العملة الجديدة،

والعمل بها حيث ستحدد اسعار الصرف للعملات المحلية مقارنة باليورو ليتم التعامل بينها على اساس تلك العملة و حدها دون غيرها، وستتحدد الاسعار طبقا للاسعار الجارية وقتها في البورصات العالمية، وبالنسبة للافراد فستكون هناك امكانية المباشرة بالتعامل بالعملتين والدفع بهما في الوقت نفسه مع اختلاف قيمة كل منهما وذلك لفترة محددة يتم خلالها استبدال كل ما هو موجود من العملات المحلية الى الـ EURO.

واخيرا فقد اتفق معظم اطراف الدولة الجديدة على ان تشارك احدى عشرة دولة منذ البداية بالتعامل باليورو وهي الدول التي حققت شروط الماستريشت والاطراف كلها متفقة على ان ايطاليا وبلجيكا يجب ان تعيد ترميم بعض مناحي اقتصادياتها والـ نزول بمستوى الدين الداخلي بحيث لايتعدى الـ 60% من اجمالي الناتج القومي وذلك في فترة قريبة، وموافقة الطليان والبلجيك على اتباع البرنامج المقترح من الاعضاء لتحقيق ذلك، وهذا يعني ان نادي الاحدى عشرة دولة سيتولى تأسيس مايمكن تسميته بحجر الاساس في الدولة الاوروبية الموحدة، والتي لا يعلم احد حتى الان حدودها النهائية وابعادها الجغرافية، وأي شكل نهائي ستتخذه تلك الدولة وفي الاول

من يوليو 2002 تأسس في أوروبا وتحديدا في الدول المنضوية تحت علم دولة الاتحاد الاوروبي، والتي حققت شروط التعامل بالعملة الجديدة قانونا عملة واحدة فقط هي اليورو باستثناء بعض الدول مثل بريطانيا التي رفضت ان تنضوي تحت اليورو، غير ان العملات الاوروبية تحولت الى تاريخ لايم سوى هواة العملات التذكارية.

لقد نجح الاتحاد الاوروبي برغم تناقضاته الكثيرة في ان يصنع عملة موحدة تنضوي تحت راياتها حتى الان 17 دولة تمثل اقتصادا قويا يمكن ان يواجه اقتصاد الدولار وانفراد الدولار، وكذلك قادر على مواجهة العملات الآسيوية وخاصة اليوان الصيني، فهل يعقل ان ينجح الاوروبيون في صنع وحدتهم ويفشل المسلمون لاقول في الوحدة ولكن في الحد الادنى التفاهم والتعاون والتعايش فيما بينهم؟ هل يعقل ان يخرج من بيننا من يسمون علماء ويصدرون فتوى للتكفير والتبديع لاتقدم أي فائدة من أي نوع سوى انها تفرق صفوف الامة والمستفيد الوحيد منها هو الصهاينة والامريكان واعداء الامة؟ هل يعقل ان يقوم البعض منا بتحويل مسار العداء من الصهاينة المجرمين الى الدول الاسلامية وخاصة الدول التي تتصدى للمشروع الصهيوني التوسعي والمشروع الامريكى الاستهدافي

الظالم؟ اذا كانت الوحدة في ظروف تاريخية كانت واجبة استنادا الى القواعد الفقهية فانها في هذه الظروف من اوجب الواجبات، بل هي الان فرض عين ليس بسبب الأوامر والقواعد الشرعية وانما ايضا بسبب المعطيات السياسية بعد كل هذا الاستعراض للمواقف الشرعية والمواقف الدولية، ولاننا امة قرآنها واحد وتعبد إليها واحداً ولنا نبي واحد ولنا قبلة واحدة، والاختلافات التي بيننا لاترقى الى مستوى الخلافات العقائدية، ولأن التحديات الآن صارت اكثر وضوحا ولأن استهداف الامة وحاضرها وثقافتها ومقدساتها اصبح واقعا، وبعد ان احتلت اراضي الامة ومنها اراضي تحوي مقدساتنا بعد كل هذا فان الوحدة لم تعد فقط ضرورة شرعية فقط وانما ايضا ضرورة حتمية، والوحدة هنا ليست وحدة البلاد الاسلامية وانما على الاقل وحدة الهدف الذي يتحتم معه التعاون والتعايش والتفاهم الى ان تكون الوحدة بمفهومها الشامل ضرورة لانه في عصر التكتلات لامناس في المستقبل عن هذا حتى لانذوب أو نضيع أو ننفى والله سبحانه هو نعم المولى ونعم النصير.

الهوامش:

- 2- هود / 11 .
- 3- الحج / 40 .
- 4- الحج / 67 .